المقدّمات التّقليديّة في شعر ابن درّاج القسطّلي

The traditional introductions in Ibn Daraj Al-Qastali poetry

ط- د: إبراهيم فكرون
أ- د: صالح مفقودة
جامعة محمد خيضر – بسكرة

ملخّص:

سنحاول في دراستنا التطرّق إلى موضوع المقدّمات في شعر ابن دراج القسطلي بين التّجديد والتّقليد، ولا يزال الموضوع أحد أهم المباحث التي شُغِل بها النقاد والأدباء في تاريخنا الأدبي والنقدي، ولو عُدنا للعصور السالفة، لوجدنا أن مَطالع القصائد وتجويدها من أوائل المباحث التي اهتم بها ناقدو الشّعر ودارسوه؛ بكشفهم للمطالع الجيّدة، وتفصيل الأحكام الجودة، وذكر المطالع غير الحسنة وإخفاقات بعض الشّعراء في فواتح شعرهم، كما نسعى في مقالنا إلى تقريب الموضوع لقرائنا وتحديد أهم مظاهر التقليد والتجديد في المقدّمات القصائد عند شاعرنا.

الكلمات المفتاحية: الشعر، التقليد، قسطلة، مقدمة، قصيدة.

Abstract:

In our study, we will try to address the topic of the initiation of the poem in Ibn Daraj Al-Qastali's poetry between renewal and tradition, and the topic remains one of the most important topics in which critics and writers have been engaged in our literary and critical history. Poetry and its scholars, by revealing the good reading, detailing the judgments of quality, and mentioning the bad deeds and the failures of some poets in the opening points of their poetry, as we seek in our article to bring the topic closer to our readers and identify the most important aspects of tradition and innovation in the introductions to the poems of our poet.

Keywords: poetry, imitation, catheter, introduction, poem.

تمهـــــيد:

تشكل مقدمات القصائد ظاهرة فنية في القصيدة العربية القديمة ويشمل مفهوم المقدمة أنواعا مختلفة، وصورا شتى تعوّد الشعراء أن يفتتحوا بها قصائدهم كالحديث عن الأطلال والغزل والرحلة والشيب والشباب والخمر وغيرها...[1]، لذا تعدّ المقدّمة تقليدا فنّيا واكب القصيدة العربيّة منذ العصر الجاهلي، وبقي ملازما لها إلى عصور أدبيّة متأخرة، فقد شكّلت ظاهرة فنيّة مميّزة تحتاج إلى قسط وافر من الشّرح والتّحليل.

ولقد أولى "ابن رشيق" المقدمة عناية كبيرة:« فهو يرى ضرورة التمهيد بين يدي القصيدة بمقدمة، ويعيب على الشعراء الذين يهجمون على أغراض القصائد مكافحة، ولا يجعلون لكلامهم بسطا من النسيب، ويسمي قصائدهم إذا كانت على هذه الحال بتراء كالخطبة[2]».

غير أنّ ابن الأثير فسح مجالا للشعراء في هذا الصدد أن يحطموا الحواجز والقيود التي تحد من شاعريتهم وخيالهم، فطالب الشاعر:« إذا نَظَمَ قصيدة أنْ ينَظُرَ، فإن كان مديحا صرفا، لا يختص بحادثة من الحوادث فهو مخير أن يفتتحها بالغزل أَوْلاَ[3]» أما إذا كان الأمر في ذلك يتعلق بحادثة فتح أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنّه ينبغي ألا تبدأ بالغزل[4] لأن ذلك يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره على الغاية، أو جعله بوضع الكلام في مواضعه، ولأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث[5]هذا المفهوم يدل على تملل ابن الأثير من أثر القصيدة القديمة[6]، وذهب حازم القرطاجني إلى تحسين المقدمة فيقول:« هي الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزّلة من القصيدة منزلة الوجه، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقى ما بعدها...[7]»

وهكذا فمقدمة القصيدة كما نلاحظ ظاهرة فنية نشأت مع ولادة القصيدة العربية، واستمرت في العصور المتلاحقة، وقد شغلت قضية المقدمات القصائد منذ القديم، وخاصة ابتداءاتها، وَأَوْلَوْها الاهتمام والعناية قَدْرَ استطَاعَتِهِم، وصاغوا آراءهم النقدية بشأنها في شكل نصائح تُوَجَّهُ إلى الشُّعراءِ، وكَثُرَ حِوَارُهُم حَوْلَ مقدمات القصائد وتعددها، وقد حافظ الشعراء في العصور الأدبية المتتالية على منهج القصيدة وقلّما دخل شاعر إلى موضوعه دون مقدمة، وسار شعراء الأندلس غالبا على نهج أسلافهم، وقدّموا لموضوعاتهم بمطالع عبروا من خلالها إلى الغرض الأساسي. وممّا تقدّم سنحاول استقراء بعض المقدمات التقليدية التي مهّد بها شاعرنا ابن دراج القسطلي لقصائده.

المقدمات التقليدية:

أوّلا: طللية أو غزلية

أ- طلليـة: احتـل الطلـل مكانـا هامـا في صـدور القصـائد العربيـة القديمـة، فقـد عمـد الشـعراء المتقـدمون إلى اسـتخدامه في جُلّ إبـداعاتهم، وخاصـة منهـا قصـائد المدح التي لزمهـا الطلـل لفـترة زمنيـة طويلـة، حتـى أصـبح - لكثـرة اسـتخدامه والالتـزام بـه- يحـاط بشـيء مـن القدسية[8].

لهـذا يعـد التقليـد الشـعري أحـد التقاليـد التي حـافظ عليهـا-غالبـا- شـعراء الأنـدلس، وتتجلى هذه المحافظة في صدور القصـائد، على الرغم مما تضفيه البيئة المتحضرة من لمسات التجديد. ولعل من أبرز التقاليد التي استمرت في الشـعر الأندلسي تَصْدُرُ المقدمة الطللية في بعض مدائح الشعراء الأندلسيين وعلى رأسهم ابن دراج القسطلي، الشاعر المدّاح، فمقدماته الطللية لا تأتي في مقدمة القصائد إلاّ بنسبة قليلة بالمقارنة بعدد قصائد الديوان، فمن ذلك قصيدته في المنذر بن يحيى والتي يبدؤها بالوقوف على الأطلال يقول[9]:

أَهَلَّ بِالبَيْنِ فَانْهَلَّتْ مَدَامِعُـــــهُ **** و أَنَـسَ النَّفَـرَ فَاسْـتَكَّتْ مَسَامِعُـــهُ

وَوَدَّعَ المَنْـزِلَ الأَعْلَـى فَأَوْدَعَـــهُ **** فِـي القَلْـبِ لاَعِـجَ بَـثٍّ لَا يُوَادِعُـهُ

يَـا مَعهـدًا لَـمْ يُضِـعْ عَهْـدَ الوَفَـاءِ **** مُكَسَّـفُ النُّـورِ عَـافِي القَـدْرِ ضَـائِعُهُ

وَلَا ثَنَى عَبَرَاتِـي عَـنْ تَذَكُّـــرِهِ **** دَهْــرٌ تَقَـارَعُ فِـي صَـدْرِي قَوَارِعُـــهُ

حَسْبِي ضُلُوعٌ ثَوَتْ فِيهَا مَصَائِبُـهُ **** وَمُقْلَــةٌ رَبَعَــتْ فِيهَــا مَرَابِعُـــهُ

سَـقَاكَ مِثْـلُ الّـذِي عَفَّـى رُبَـاكَ **** يُنْبِيـكَ كَيْـفَ غَرِيـبُ الرَّحْـلِ شَاسِعُـهُ

صَـبًا كَتَصْعِيدِ أَنْفَاسِـي وَصَـوبُ **** تُرِيــكَ عَبْــرَةَ أَجْفَــانِي مَدَامِعُـــهُ

هذه المقدمة أعجب بها حازم القرطاجني حيث يقول عنها:« ومما اختير من المبادئ، ومما أستحسنه أنا قول أبي عمر بن دراج القسطلي: أَهَلَّ بِالبَيَنِ فَانْهَلَّتْ مَدَامِعُهُ... [10]» فالشـاعر يسـلك سـبيل التجديـد، فيتحـول بمقدمتـه الطلليـة مـن مجـرد الوقـوف على المنزل بمفهومـه التقليـدي الخـاص إلى الوقـوف على المنزل الأعلى والـوطن الأم الـذي اعتـاد على مفارقتـه وتوديعـه والبكاء على أطلاله[11] فالمقدمة الطللية -هاتـه- جـاءت لتعبر عـن إحساسـه بـالألم والأسـى لفـراق المحبوبة، فلم يتمالك نفسـه حتى سالت دموعه وصُمَّت آذانه فقد خلّف الرّحيل في نفسه وقلبه أحزانا لا تُنْسَى، فيقـف الشـاعر أمام ديار المحبوبـة-التي دائما تردد إليها وعَهِدَها-وَفَاءً لـذكراها، ويشعر أن هذه الديار أصبحت في مثل حاله حيث ذهب بهاؤها وزالت قيمتها وضاعت مكانتها، ولكنها -مع ذلك- لـم تفقـد مكانتهـا في قلـب الشـاعر على الـرغم مـن كثـرة المصـائب التي لحقتـه فمصـائب الـدهر قـد تتابعـت عليـه ولازمتـه، لـذا لـم تَكُفْ عينـاه عـن البكـاء، ولا يملـك أمـام تتـابع هذه المصائب إلا أن يدعو - على عادة الشعراء- بالسـقي لهذه الديار التي عفتها الأمطار ولكن

هذه الأمطار التي يدعو بنزولها هي ناتجة عن كثرة زفراته فإذا نزلت على دار المحبوبة فهي تبكي عليها كما بكى هو عليها لإحساسه بالغربة[12] ثم يذهب الشاعر أن يعقب بوصف ما يثيره الفراق من ألم وما يطالعه الدهر من شوق وحنين أدى به إلى الأسى الدائم، فهو يتمنى استعادة أيام اللهو والمرح التي فارقها ونعم أثناءها بالعيش الرغيد ووفاء الأحبة بين أرجاء الرياض والجنان، والحمائم التي تطل برؤوسها، مُصْدِرَةً أصواتا وألحانا... إنها صورة رائعة عن البين واللّواعج والأشواق والفجائع، يفنى الشاعر ويفنى الوطن وما يفنى هذا الحب.

ويستغل ابن دراج المقدمة الطللية ليوظفها توظيفا جديدا، فنراه في قصيدته التي يمدح فيها المنصور العامري- وهي أول شعر مدحه به-[13] يذكر تبدل حاله إلى الأسوإ ويتأسف على فوات الشباب، وعلى ربع الأحبة الذي عفا عليهم الزمن وغيّر معالم رسومه، وعلى ظهور الشيب، مما جعل النساء يُعْرِضْنَ عنه وَيُغْلِقْنَ ديار اللّهو عنه، فهو يعود إلى أيام صباه ويستحضر ذكرياته الحلوة يقول[14]:

فَيَا لِلشَبَابِ الغَضِّ أَنْهَجَ بُرْدُهُ	***	ويا لِرِياضِ اللَّهْوِ جَفَّ سَفَاهَا
ويا لِدِيَارِ اللَّهْوِ أَقْوَتْ رُسُومُهَا	***	ومَحَّتْ مَغَانِيهَا وَصَمَّ صَدَاهَا
وَخَبَّرَ عَنْهَا سَحْقُ أَثْلَمَ خَاشِع	***	كَهَالَةِ بَدْرٍ بَشَّرَتْ بِحَيَاهَا
فَيَا حَبَّذَا تِلْكَ الرُّسُومُ و حَبَّذَا	***	نَوَافِحُ تَهْدِيهَا إِلَيَّ صَبَاهَا

يجسد ابن دراج هنا أحد مقومات الطلل عندما يتحدث عن الديار الدارسة متذكرا نسيمها العليل، والحيوانات ترتع فيها، فبعد أن يأسف لدمار تلك الديار التي تبدل حالها بعد أن كانت عامرة بأهلها فقد رحلوا عنها وضاعت معالمها وتبدلت رسومها، واندثرت مغانيها وزال جمالها ورونقها، فلا تجيب سائلها، ولا تلبي نداء، فقد أصبحت بالية، وتهاوت جدرانها وهي مع ذلك تبدو جميلة لما تحمله من ذكريات هنيئة عاشها الشاعر[15] فنسيمها مازال يذكره بهذه الأيام الجميلة السابقة، ولم يبق من تلك الحياة العامرة التي كانت فيها سوى الغرف البالية والتراب والحجارة التي تحمل آثار القوم الراحلين، وتزداد أحزان الشاعر في الأبيات لتكمّل الصورة الأولى، ففي المقطع الأول بكى عن حاله، وبعدها يبكي على الديار، إنّها ليست ديار عادية بل كانت تشهد ساعات لهوه وتمتعه بالحياة، ثمّ أراد بعدها أن يخفف على نفسه وما يلازمها من آلام وأحزان، فلجأ إلى ذاكرته يسترجع شريط الذكريات الجميلة التي كانت تلك الديار شاهدا عليها. والجدير بالذكر هنا أنّ ابن دراج قد استغل هذه المقدمة الطللية ليعبر عن حاله وما آل إليه من فقر وشدة ومعاناة بصورة رمزية[16].

ثم ينتقل ليعقد مقارنة بين حاضره وماضيه أو بين حاضر هذه الديار التي امتلأت بالبقر الوحشي الذي يتهادى في جنباتها وبين ماضيها حيث كان يسكنها النساء الجميلات اللاتي

كثيرا ما يشبههن بالبقر الوحشي في رشاقتهن وجمال عيونهن، وإذا كانت هذه الديار تنتشر فيها الأقاحي بفعل الربيع فإن هذه الأقاحي تذكره بأسنان المحبوبة حين تبتسم، وحين تذكر الشاعر هذه الذكريات الجميلة دعا لها بالسقيا لما هيجته في نفسه من لواعج الشوق والحنين، فانهلّت دموعه وفاضت حتى سقت هذه الديار يقول[17]:

تُهَادِي المَهَا الوَحْشِيّ فِي عَرَصَا *** تِهَا يَذْكُرْنِيْهِ آنِسَاتُ مَهَاهَا
وَمُبْتَسِمُ الأَحْبَابِ فِي جَنَبَاتِهَا *** أُقَاحٌ كَسَاهُنَّ الرَّبِيعُ رُبَاهَا
دَعَوتُ لَهَا سُقْيَا الحَيَا وَدَعَا *** وَبَرْحُ الهَوَى دَمْعِي لَهَا فَسَقَاهَا

ب- غزَلية: تعد المقدمة الغزَليّة من المقدمات التي احتلت مكانها التقليدي في القصائد القديمة، إلى جانب المقدمات الطللية، وهي مقدمات لا تتناول وصف أظلال الحبيبة، وإنما تصف الحبيبة ذاتها[18]، فقد كثر انتشار المقدمة الغزلية في صدور القصائد في الشعر العربي، ولا يقل انتشارها عن المقدمة الطللية « فقد افتتح الشعراء الجاهليون، قصائد كثيرة بالمقدمة الغزلية، وتتألف هذه المقدمة من الحديث عن صد المحبوبة وهجرها أو بعدها وانفصالها، وما يخلفه البعد والهجر والفراق من تعلق شديد وشوق مستبد، ودموع غزار يسكبها الشاعر حسرة وألما ولهفة، وسرعان ما نفد على خاطره أيامه الماضية السعيدة، وذكرياته الحلوة الجميلة، حين كان يلتقي بمحبوبته، ويبرح كل منهما لصاحبه بحبه، وتبادله إعجابا بإعجاب، وشوقا بشوق... [19]».

وقد شاعت المقدمة الغزلية كما رسمها شعراء الجاهلية في صدور القصائد الأندلسية بكثرة واقتفى فيها الشعراء العرب في الأندلس آثار أسلافهم غالبا، أما فيما يخص المقدمة الغزلية عند الشاعر في فواتح قصائده-خاصة المدحية- قليلة جدا، فمن أبرزها رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر والتي مطلعها[20]:

دَعِي عَزَمَاتِ المُسْتَضَامِ تَسِيرُ * فَتُنْجِدُ فِي عُرْضِ الفَلَا وَ تَغُورُ
لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكِ مِنْ لَوْعَةِ النَّوَى * يُعَزُّ ذَلِيلٌ أَوْ يُفَكُّ أَسِيرُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ التَّوَى * وَأَنَّ بُيُوتَ العَاجِزِينَ قُبُورُ

إلى أن يقول:

وَ لَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا * بِصَبْرِيَ مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُنِي عَهْدَ المَوَدَّةِ وَالهَوَى * وَفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النِّدَاءِ صَغِيرُ

قد بلغت هذه القصيدة شهرة هائلة في الشرق والغرب[21]يقول محقق ديوانه:« يمكن أن نفترض أن مكانه ابن دراج قد توطدت بعدها، وأنه أصبح نجما من النجوم الساطعة في فلك دولة المنصور[22]» من هذا المنطلق نالت إعجاب النقاد- قديما وحديثا- وذلك لتأصيل الشعر في نفوسهم وكان جزءا من طبيعتهم التي فطروا عليها،فهذا حازم القرطاجني يقول عنها: « وما بدع

قول ابن دراج عندما ذكر وداع امرأته و ما ظهر من الشجو في ألحاظ ابنه الصغير لما أبصر من حالها عند ذلك، فتبين ذلك في عينيه[23]».

كما وقف عندها "زكي مبارك" في موازنته بين ابن دراج وأبي نواس في مدحهم، فيفضل صورة ابن دراج ويعلق عليها تعليقات مختلفة، مثل تعليقه على قوله:" تناشدني عهد المودة بقوله "وأحسن ألا يفوت القارئ ترجيح هذا البيت كاملة "مبغوم النداء" كلمةً مختارة بارعة المدلول قوله: "عيني بمرجوع" بيت نادر المثال، وقوله" تبوء ممنوع القلب..." من أرق ما صور به الجنان وما أرجح ما يقول « عصيت شفيع النفس[24]» وقد وقف عندها "أحمد هيكل" وعدّها من براعة الشاعر[25] كما عدد شوقي ضيف هذه المقدمة دليلا على قدرة ومهارة الشاعر الفنيّة فهي:« قطعة تفيض بالعواطف والشعور الحي، وهي دليل على جودة شاعرية ابن دراج، وأنّه لو ترك نفسه على سجيتها دون عناية بتقليد المذاهب الشرقية من صنعة وتصنيع لاستطاع أن يترك لنا شعرا مليئا بالحيوية والقوة والوجدان الفياض[26]» فهذه القصيدة استهلها الشاعر بتصوير رائع لما كان بينه وبين زوجته من حوار ينم بعذوبة في لحظات الفراق، فهو يتمنى الفرج بعد الضيق، ثم انتقل إلى وصف الوداع وما انطوى عليه من أسى وحزن أليم.

نلاحظ أنه يتبع طريق أهل البادية- كما يقول ابن رشيق- يذكر النخيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وَصْفُهُ الطُّلُولَ والحُمُولَ، والتشويق بحنين الإبل ولمع البروق، ومرّ النسيم في لوحة واحدة بعناصر متعددة[27]، ففي مقدمته الغزلية التي يمدح فيها المنصور منذر بن يحيى مزج فيها بين عناصر الطبيعة وبين لواعج شوقه وحنينه إلى محبوبته التي تحن لحزنه يقول[28]:

لَعَلَّ سَنَا البَرْقِ الَّذِي أَنَا شَائِــمُ * يَهِيمُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْ أَنَا هَائِــمُ
أَمَا فِي حَشَاهُ مِنْ جَوَايَ مَخَايِلٌ * أَمَا فِي ذُرَاهُ مِنْ جُفُونِي مَيَاسِــمُ
لَقَدْ بَرَّحَتْ مِنْهُ ضُلُوعٌ خَوَافِــقٌ * وَقَدْ صَرَّحَتْ مِنْهُ دُمُوعٌ سَوَاجِمُ
وَنَفْخُ صَبًا بِهِمْ عَلَى جَنَبَاتِــــهِ * كَتَصْعِيدِ أَنْفَاسِي إِذَا لَامَ لاَئِــمُ
وَتِحْنَانُ رَعْدٍ صَادِعٍ لِمُتُونِــــهِ * كَمَا زَفَرَتْ نَفْسِي بِمَنْ أَنَا كَاتِمُ
وَمِيضٌ تَشُبُّ الرِّيحُ وَالرَّعْدُ نَارَهُ * كَمَا شَبَّ نِيرَانُ المَجُوسِ الزَّمَازِمُ
حَمِيلٌ بِحَمْلِ الرَاسِيَاتِ إِلَى الّذِي * تَحَمَّلَنِي عَنْهُ القِلاَصُ الرَوَاسِــمُ

فالشاعر يستهل هذه المقدمة الغزلية التي يجمع فيها بين عناصر الطبيعة وبين لواعج شوقه وحنينه إلى محبوبته التي تحن إليه بتعبير عن شوقه وحنينه لمن يحبُّ، فهو يرى في ومضات البرق ما يذكره بالمحبوبة التي هام بها فاختلطت عليه أمور حياته، ولم يستطع معرفة أين طريقه، لما يحمله قلبه من وجد وحرقة خلف دموع مسالة، فهو حمّل البرق بعض ما يعانيه لعله يوصله إلى محبوبته، فجعل صيحاته المكتومة لما يجده من آلام ظهر يمتطيه البرق فيحدث

صوتا شجيا هو الرعد الذي هو انعكاس للشاعر، فجعل بريقه ولمعانه شديدا فقد زادت الريح في اشتعاله وهيجانه كما تزداد نار المجوس اشتعالا إذا تواطئوا حولها بأصواتهم، فإذا نزل المطر نزل سيلا شديدا لما يحمله من رسالة ثقيلة إلى المحبوبة تعجز عن حملها الناقة القوية التي قطع بها المفاوز بمرتفعاتها، وما عاد إلاّ بالأسى الذي لا ينفع معه الصبر.

فهذه المقدمة تبرز لنا ملامح طبيعة الأندلس، فعناصر الطبيعة تمتزج بمشاعر الشاعر، فالنسيم كأنفاسه، والرعد كزفراته، وفي أحشائه نار الوجد تتأجج، وتلتهب كنار المجوس، وهو يرجو الله أن يصبره وتمنحه القدرة على تحمل لوعته، ويسخر الشاعر عناصر الطبيعة في خدمة مشاعره، فيطلب من البرق أن يساعده في الوصول إلى من يحب ويهوى، ولعله يسقي دياره بدمع عزيرٍ ويستكمل ابن دراج مقدماته الغزلية فيختم غزله العذري الذي تشاركه الطبيعة فيه ببرقها ونسيمها وشمسها وبدرها ونجومها، بغزل مادي فيترقب زيارة المحبوبة التي يدل عليها جرس حليّها الرنان وهذا عندما تَحْضُرُ ليزولَ نار الشوق المتأججة في أعماقه[29].

ثانيا: الوداع

من أهم ما يميز مقدمات "ابن دراج" حديثه عن سفره ووداعه لعائلته، فهو كثير الحديث عنهم، دائم الحنين إليهم مهتم بأمرهم، فكان هذا اللون من الحديث أبرز موضوعات ابن دراج الشعرية التي تتخلل قصائده الأخرى، فقد ذكر أبناءه بألوان مختلفة من الذكر، بلغت أكثر من عشرين مرة في ديوانه[30]، فقد ودّع زوجته وأولاده، والحزن يكويه لفراقهم، فجسّد الحوار الشجّي الذي دار بينه وبين زوجته في لحظات الفراق،ولكن لا ضير من البعد عن الأهل والأحبة لأنه سيحل ضيفا على المنصور العامري الذي يسترد له كرامته، ويغدق عليه الأموال، فهذه الصورة أولاها الشاعر عناية خاصة حتى جاءت في الديوان بصورة ربما لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر[31]، ولعل من أسباب ذلك، تلك الظروف الخاصة التي أحاطت بالشاعر من شدة تعلّقه بأولاده إلى قسوة الأيام عليه وعليهم، فقد اضطرّ الرجل أول الأمر إلى مغادرة بلده قسطلة نحو العاصمة قرطبة، وفي هذه المرة ترك أولاده إلى أن هيّأ له ولهم حياة مستقرّة.غير أنّ الفتنة حملت الشاعر على الضرب في الآفاق بحثا لنفسه ولأولاده عن الملجأ والقوت، فكان يرحل عنهم ويودعهم حينا راحلين عنه أحيانا أخرى، وكان في أكثر الأحيان مفتقدا لهم أو لبعضهم حاملا لهمّهم، محسّا بقسوة الحياة عليهم، ثمّ إنّهم بلغوا حدا من الكثرة يرهق الكاهل، كما كانوا جميعا معلقين في عنق أبيهم في تلك الظروف القاسية التي أظّلت الأندلس في تلك السنين[32]، وفي سياق حديثنا يقول في وداع زوجته إلى طفلته ذات الثمانية أعوام[33]:

وللهِ عَزْمِي يَـوْمَ وَدَّعْـتُ نَحْـــوَهُ * نُفُوسًا شَجَانِي بَيْنُهَا وَشَجَاهَـــا
وَرَبَّـةُ خَـدْرٍ كَالجُمَّـانِ دُمُوعُهَـــا * عَزِيزٌ عَلَى قَلْبِي شُطُوطُ نَوَاهَـــا
وَبِنْـتُ ثَمَـانٍ لَا يَـزَالُ يَرُوعُنِـــي * عَلَى النَّأْيِ تَذْكَارِي خُفُوقَ حَشَاهَا
وَأَقْسَمَ جُودُ العَامِرِيّ لَيَرْجَعَـــنْ * خَفِيًّا بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلُ جَفَاهَـــا
وَأَنَّى لَهَا مَثْوَى أَبِيْهَا وَقَدْ دَعَتْ * بَوَارِقُ كَفِّ العَامِرِيّ أَبَاهَـــا

يتحدث الشاعر عن فراقه لأسرته، فدموع زوجته لم تنقطع، فهو يشبهها بالجمان (الدّرر الفضّية) وأنه قد ضعف أمام تتابع هذه الدموع الغزيرة المؤلمة الذي أحس بوقعها على قلبه، وصوّر ابنته الصغيرة أيضا ذات الثماني سنوات، التي كانت أحشاؤها تخفق اضطرابا وحزنا لفراق الوالد، وكيف يستطيع نسيان صورتها، ثمّ يصوّرها وقت الوداع خاصة عندما تعلقت يداها بِكَتِفَيهِ، فهو مازال يشعر بآثار يديها، وراحت تشكو أباها ما قد يصيبها بعده من جفاء الأقارب، فالمشهد كما هو واضح لوعة الفراق وألم البعد، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد هيكل:« إن من أبرز ملامح شخصية ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد...[34]» لهذا نرى الشاعر يكاد أن يكون أكثر شعراء العربية ذكرًا لأولاده، وشكاية من قسوة الأيام عليهم.

كما نرى الشاعر في مقدمة إحدى مدائحه للمنصور منذر بن يحيى، يعيد الحنين إلى أسرته التي ظلت ذكراها عالقة بخاطره، فهو يضفي أحاسيسه على مظاهر الطبيعة ويشكو إليها حاله، ويحمّلها معاناته، فهو يخاطب الربيع متمنيا أن يجنح إليها ويعانق صدره وجوانحه فيقول[35]:

قُـلْ لِلرَّبِيـعِ اسْحَبْ مُلاَءَ سَحَائِـبِ ، فَـاجْرُرْ ذُيُولَـكَ فِي مَجَـرِّ ذَوَائِبِـي
لَا تُكْـدِيَنَّ وَمِـنْ وَرَائِـكَ أَدْمُـــعِيْ ، مَدَادًا إِلَيْكَ بِفَيضِ دَمْعٍ سَاكِـبِ
وَصَـبَابَةٌ أَنْفَاسُـهَا لَـكَ أُسْـــوَةٌ ، إِنْ ضَاقَ ذَرْعُكَ بِالغَمَامِ الصَّائِبِ
وَامْـزِجْ بِطِيـبِ تَحِيَّتِي غَـدِقَ الحَيَـا ، فَاجْعَلْـهُ سَـقْيَ أَحِبَّتِي وَحَبَائِبِـي

فهو يطلب من الربيع أن يرسل سحابا ينهمر بالأمطار، ويجري فيها مهده له من طرق ومجدات أذابها بدموعه، ويطلب من السحاب ألا يبخل بالماء لأن دموعه السواجم معين لا ينضب يمده بالماء، ثم يطلب من الربيع أن يمزج تحيته العطرة بماء سحابه الغزير ليسقي أحبته[36].

وهكذا فقد سخرت الأيام سخرية رقيقة بالشاعر« فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجته وأولاده، وتعلقهم به ورقّته عليهم في رحال الفراق المتخيّل، ثمّ انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال، حديثا مستمدا من الواقع، لا من الخيال وأنّه كان غير راضٍ بالنعمة دون رضي، فأصبح يرضى بالرزق من أي كفٍّ جاءه[37]».

ثالثا: الرحلة

والواقع أن ابن دراج دائما يمهّد قصائده بذكر البين والفراق ثمّ مواقف الوداع ليميل إلى عطف الممدوح، ويعتبر هذا الجانب كمقدمة الرحلة للممدوح وهكذا يرحل الشاعر إلى ممدوحه، على ناقة وجناء - شديدة و قوية- يصفها وصفا دقيقا عبر صحراء شاسعة مقفرة – خالية - موحشة لا أثر فيها للحياة،والحق أنه يسهل إلى ممدوحه المنصور في نهاية الرحلة، وبذلك يستطيع الشاعر أن ينتقل من المقدمة إلى المدح انتقالا حسنا، امتزج فيه شعور الشاعر بالتعب والإرهاق، وإحساسه بالراحة والسرور، وفي هذا يقول عمر الدقاق:« إن رحلة ابن دراج إلى قرطبة حيث المنصور بن أبي عامر، لم تكن وهمية، ولكنها الحقيقة، استمد الشاعر أوصافه من واقعه الذي يعيشه، ومن هنا جاءت جزئياتها نابضة بالحياة...[38]» ومقدمة الرحلة تأتي دائما مرتبطة بحديث الطلل أو الوداع، وهي من أكثر المقدمات التي تتجلى فيها بذور التقليد ومحاكاة القدماء[39].

ومن هذا المنطلق نعرج عن مقدمة ابن دراج في حديثه عن رحلته إلى الصحراء، ووصفه لما يلقاه من مشقة وما يقابلها من أهوال وما تتحمله الناقة من جهد عظيم، حتى يصل إلى الممدوح هذا يعد جانبا تقليديا، إلا أننا نلاحظ عنده نوعا من الجدة في التعبير عن مشاعره- تجربته الذاتية- وموقفه من الحياة ومن ذلك قوله[40]:

وَقَدْ عَجَمَتْ مِنّي الخُطُوبُ ابْنَ * أَبِيًّا مَخَزَّاتِي لِوَقْعِ مُدَاهَا
جَدِيرًا إِذَا أَكْدَى الزَّمَانُ * يُحَقِّرُ بُعْدَ الأَرْضِ عَرْضُ فَلاَهَا
رَحَلْتُ لَهَا أَدْمَاءُ وَجْنَاءَ حَرَّةً * وَشِيكًا بِأَوبَاتِ السُّرُورِ سُرَاهَا
أَقَامَتْ بِمَرْعَى خَصْبِ أَرْضٍ * أَطَاعَ لَهَا تَنُّومُهَا وَأَلاَهَا
أَشُجُّ بِهَا وَاللَّيْلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ * سَبَارِيتَ أَرْضٍ لَا يُرَاعُ قَطَاهَا

ويتابع في حديثه إلى أن يقول:

عَسَى رَاحَةُ المَنْصُورِ تُعْقِبُ رَاحَةً * وَحَتْمٌ لِآمَالِ العُفَاةِ عَسَاهَا

فابن دراج في هذه المقدمة يصور ما يلقاه في هذه الرحلة من مشقة وتعب وهذا كله في سياق الشكوى من آلام الرحلة، فهو شجاع قوي، ذو عزيمة، لديه القدرة على المواجهة والتحمل، لأن الرحلة تحتاج إلى إرادة قوية لما فيها من هول عظيم، ثم ينتقل إلى وصف ناقته فهي شديدة البياض، قوية، حرة، ممتلئة اللّحم ليصل في الأخير إلى وصف أهوال هذه الرحلة، فاللّيل في حد ذاته يوحي بالرهبة، وخاصة ظلامه الدال على الفزع والهلاك، وما آل إليه حاله فهو لا يقطع الأمل، فقد لقى كثيرا من المعاناة في هذه الرحلة، فهو مرّ بأرض مهوّلة قفر لا أنيس بها، يصارع ظلام اللّيل الرّهيب الممتلئ بالسكون.

وفصّل القول فيها حينما تكون بالبر أو بالبحر، حيث رسم لما يكون من خلالها من مشاهد، شارح لما يعاني فيها من أهوال، وهو كعادته يمزج بين الوصف الحسي والنفسي، ويجمع بين المشاهد الخارجية والانفعالات الداخلية[41]. ومن ذلك أيضا قوله في بعض الرحلات البحرية[42]:

إِلَيْكَ شَحَنًّا الفُلْكَ تَهْوِي كَأَنَّهَـــا * وَقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغرِبِ الشَّمْسِ
عَلَى لُجَجِ خُضْرٍ إِذَا هَبَّتِ الصِّبَا * تَرَامَـــى بِنَـــا فِيهَـــا ثَبِيـــرُ
مَوَائِلَ تَرْعَى فِي ذُرَاهَا مَوَائِـــلاً * كَمَـــا عُبِـــدَتْ فِـــي الجَاهِلِيَّـــةِ

فصورة الرحلة في السفينة لا تختلف عنها في الصحراء من جانب المشقة والمعاناة التي يلقاها، لكن تختلف المعاناة والمخاوف؛ فالشاعر يصف رحلة البحر في قصيدته النونية التي يخاطب فيها خيران العامري[44] فهو يتحدث عن الفلك التي تهوى ساعة الغروب كأنّها غربان خائفة من مقدم الليل، ويصفها وهي تشرع على لجج الماء الخضر التي تقذف بما يشبه جبل ثبير وثهلان كلما هبت الريح، فتبدو السفن موائل ترى في أعلاها ركابا قد تجمدوا من الخوف فصاروا كالأصنام، وهي صورة من المشقة والمعاناة يعانيها الشاعر وبناته في رحلته البحرية هذه، وتزداد قتامتها حين يظهرها الشاعر وقت الغروب حين يسدل الظلام ستاره على الكون وتذهب بهم مسرعة كأنّها تفر من مطارد يطاردها كالغربان المذعورة، كما يصوّر الخطر المحدق بهم حين يتحدث عن الأمواج في ارتفاعها وانخفاضها مما يجعل الركاب يتجمدون دون حركة، أما على مستوى بناته فصورتهن سيئة من خلال الملابس الرثة التي يلبسنها، ويظهر على ألسنتهنّ حالة اليأس الذي سيطر عليهن من أنّ الموت محقق، وأنّه لا قبر سوى البحر، وحتى لو كتبت لهن النجاة فيشككن في وجود من يهتم بهنّ على الأرض حيث لا مأوى لهن إذ يعشن حالة غربة، ويريد الشاعر من هذه المقدمة لقصيدته أن يلفت نظر ممدوحه إلى الحالة البائسة التي يعيشها أفراد أسرته ليستدر عطفه وينال عنده الأمن الاقتصادي والأمن النفسي لأنّه أصبح شريدًا لا مكان يأويه. وهكذا يصف الشاعر أهوال الرحلة البحرية، ويصف وقع تلك الأهوال على النفس فيجمع إلى الأوصاف الخارجية الانفعالات الداخلية، ويمزج بين الوصف الحسي والنفسي مزجا فنيا رائعا[45].

ومن خلال ما تقدّم نلمس تأثرا واضحا بالموقع الجغرافي للأندلس، كشبه جزيرة تحيط بها المياه من أكثر الجهات، ويُتَنَقَل بين أطرافها بطريق البحر، وتُستخدَمُ السُّفنُ كوسيلة ذات شأن بين وسائل المواصلات، ومن هنا كثر وصف الشاعر للبحر والسفن والرحلة المائية. هذا اللّون الطريف – و صف الأسفار والرحلات – والنزهات البحرية- مما أوحت به بيئة الأندلس، وما كان فيها من وفرة المياه والجداول والأنهار، وقد أكثر ابن دراج منه، مما يدل أنه

تأصل كموضوع بارز في شعره ونستخلص أنّ معظم قصائده غلبت عليها المقدمات التقليدية كما سبق ذكره.

الهـــــــوامش:

(1)- نـور الـدين السيد:الشـعرية العربيـة في التطـور الفني للقصـيدة العربيـة حتى العصـر العباسـي ، ديـوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، 1995م، ص241.

(2)- ابن رشيق: العمدة، ص 231.

(3)- أشرف محمود نجا: قصيدة المديح في الأندلس، قضاياها الموضوعية والفنية (عصر الطوائف)، دار الوفاء لدنيا النشر والطباعة، ط1، 2002م، ص113.

(4)- يوسف حسين بكار: بناء القصيدة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م، ص281.

(5)- ابن الأثير: المثل السائر، ص236.

(6)- فورار امحمد بن لخضر: الشعر الأندلسي في ظل الدولة العامرية، دراسة موضوعية وفنّية، ص180.

(7)- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص309.

(8) - هند بوعود: بناء قصيدة المدح بين المتنبي وابن دراج(السيفيات والعامريات)، إشراف: ربعي بن سلامة، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2001م، ص26.

(9)- ابن دراج: الديوان، ص 113.

(10)- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ض313.

(11)- أشرف محمود نجا: قصيدة المديح في الأندلس، ص137.

(12)- ينظر: أشرف علي رعرور: الصورة الفنيّة في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي، ص 289.

(13)- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ص177.

(14)- ابن دراج: الديوان، ص 08-09.

(15)- ينظر: وسام قبّاني: عامريات ابن دراج، الهيئة العامة السورية للكتّاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م، ص138.

(16)- ينظر: أشرف علي رعرور: الصورة الفنيّة في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي، ص 266.

(17)- ابن دراج: الديوان، ص09.

(18)- يوسف خليف: صور أخرى من المقدمات الجاهلية، مجلة (المجلة)، العدد 104 أغسطس،1965م، نقلا عن يوسف خليف: القصيدة الجاهلية في المفضليات، ص167.

(19)- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر،1974م،ص 128.

(20) - ابن دراج: الديوان، ص249-250.

(21) - ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص135.

(22) – المصدر السابق: ص37.

(23) - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ص313.

(24) - زكي مبارك: الموازنة بين الشعراء، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1998م، ص249.

(25) - أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص313.

(26)- شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص429.

(27)- ابن رشيق: العمدة، ج1، ص235.

(28)- ابن دراج: الديوان، ص:130-131.

(29)- ينظر: وسام قباني: العامريات، ص229.

(30)- ابـــن دراج :الـــديوان ص198،307،107،110،118،127،128،167،178،184،9،13،74،78،87،100، 190،327.

(31)- علي محمـد سـلامة: الأدب العربـي في الأنـدلس، تطـوره، موضـوعاته، وأشـهر أعلامـه، الـدار العربيـة للموسوعات، بيروت، لبنان، ص 261.

(32)- محمد سعيد محمد: دراسات في الأدب الأندلسي، ص87.

(33)- ابن دراج: الديوان، ص11.

(34)- أحمد هيكل: دراسات أدبية، دار المعارف، ط1، القاهرة، 1980م، ص297.

(35) - ابن دراج: الديوان، ص138.

(36) – ينظر: أشرف علي رعرور: الصورة الفنيّة في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي، ص293.

(37)- إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ص232.

(38) - عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، منشورات جامعة حلب، سوريا، ط3، 1978م، ص101.

(39) - وسام قبّاني: عامريات ابن دراج، ص438.

(40) - ابن دراج: الديوان، ص9-11.

(41)- أشرف علي رعرور: الصورة الفنيّة في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي، ص 314.

(42) - ابن دراج: الديوان، ص 74.

(43) - ثبير وتهلان: جبلان.

(44) - عمر إبراهيم توفيق: الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس، موضوعاته وفنونه، ص 76.

(45) – حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، م3، ص217.